

مسابقة الفلسفة لطلاب السنة التوجيهية (١٨٤٣، ٤، ٥)

٣ - الحرية

للأستاذ كمال دسوقي

→→→→→

١ - جون استيوارت مل :

تضافرت ظروف « مل » الشخصية على أن تخلق منه رجلاً متمرداً نواحي الكتابة ، فالتربية الشاقة التي أخذها بها أبوه كرايت ، وتدرجه حتى الرياسة في العمل بشركة الهند India House ، منذ السابعة عشرة حتى الخمسين ، ثم رفضه الاستمرار في أي عمل بعد أن أنحأت شركة الهند الشرقية . فيما عدا عضوية البرلمان عن وستمنستر (١٨٦٥ - ١٨٦٨) ؛ قد أتاح له حتى وفاته سنة (١٨٧٣) من الفراغ ما تمكن منه من نشر مذهب واسع . يتضمن - عدا كثير من المقالات في مجلة وستمنستر ، ونشر مذهب بنتام وأية طائفة من الكتب - تكوين مذهباً عاماً - وإن يكن لسلك منها فكرته الخاصة .

وتتمدد شخصية استيوارت مل العملية من خطر طلاب المسابقة ، فإنه لن يتحتم عليهم أن يلجوا بل المنطق الكبير في مؤلفه الضخم System of Logic (١٨٤٣) ولا بل الاقتصادى بحكم دراسته الأولى في كتابه : الاقتصاد السياسى (١٨٤٨) ، ولا بل الفيلسوف الإنجليزى النزعة في كتابه « النفعية utilitarianism ، الذى جمع مقالاته (١٨٦١) ، ولا بل السياسى في كتابه : تأملات في الحكم النيابى (١٨٦١) ، ولا بل الاجتماعى في كتاباته عن المرأة والدين والمنفعة - إلى آخره - أعنى أن الكتاب الذى سيدرسه طلاب المسابقة يمكن فهمه وحده في حدود معلومات عامة عن مل - كما يمكن - ابتغاء الاتفاق والتعمق - فصل هذا الكتاب عن بقية آثار مل .

ومع هذا فلن يستطيع طالب المسابقة إلا أن يربط بين « الحرية » وكتاب « النفعية » على الأقل لأن هذا يبدأ حيث ينتهى ذلك ، ومع أن الحرية قد تم نشره أولاً (١٨٥٩) ؛ بعد أن كانت فكرته منذ ١٨٥٥ موضع اللرس والتحجيص والنقد من المؤلف وزوجته ، فإن كتاب « النفعية » ترجع فكرته إلى

مقالات كان قد نشرها من قبل تنقيحاً لمذهب أبيه وصاحبه بنتام - ولكنه لم ينشر إلا (١٨٦١) - وفوق هذا فإن مذهب النفعية لم - كما يمثل هذا الكتاب - أوسع نطاقاً من الحرية ، لأنه يشمل الحياة الفردية والاجتماعية والخلقية والنفسية ، كما يدخل في السياسة والاقتصاد . ولذا نجد أن الناشرين الإنجليز يقدمون بين يدي مؤلفات « مل » بكتابه « النفعية » وإن كان كتابه عن الحرية أوفرها حظاً من الدقة والعناية في دراسته ، وبالتالي أهم معبر عن آراء الفيلسوف الخاصة وأكثر كتيبه ذبوعاً .

لقد كان « مل » الصنير ، وهو يسعى بذلك تمييزاً له عن مل الكبير - أبيه جيمس من اتساع العقل وتفوذ الفكر بما لم يكن كثير من المؤلفين ، فحقق الأمل الذى عقده عليه أبوه في اصطناع مذهب النفعية التى ورثه وصاحبه بنتام إياه ، وإن يكن قد خرج به عما قصدا إليه بمض الشئ ؛ فإن المذهب بعد تعديل فيلسوفنا له قد قبله العامة أكثر من ذى قبل ، مع أنه لم يخل من التمزوض والتناقض .

وخلاصة هذا المذهب في كلمة واحدة هى ما يتسع لها المقام هنا - ما تقول به نظرية المنفعة أو مبدأ السعادة من أن الأفعال تكون صواباً بمقدار ما ترمى إلى تحقيق السعادة ، وخطئة بقدر ما تؤدي إلى نقيض السعادة - ويعنى بالسعادة happiness هنا تحقق اللذة pleasure ، وتجنب الألم pain ، كما يعنى بالشقاء ، تحقيق الألم ، واستناع اللذة . ويقوم هذا المبدأ على فكرة اللذة النفسية psychological hydonism التى تفترض رغبة الإنسان بفطرنه في أن يحقق نفسه أكبر لذة ممكنة ، وأن يجتنبها كل ألم ، على ألا يتعارض في رغبته مع رغبات غيره ، وعلى أساس التضحية بالسعادة الفردية في سبيل سعادة المجموع ، والسعادة العاجلة انتظاراً لسعادة أكبر منها آجلة . أى تقديم الكيف quantity في نشدان هذه السعادة على الكم quantity وأخذها بأوسع معانيها بالنسبة لكائن متطور .

ولسكى تفهم هذه النظرية - وغيرها من نظريات مل - ينبغى أن تعرفها بالنظرية التى يعارضها بها المؤلف قديماً وحديثاً - فإن مؤلفنا كان حريصاً أشد الحرص على أن يميز نظرياته عما يسبقها ، وأن يبين وجوه الشبه والخلاف بينها وبين غيرها - كما كانت طريقته في الكتابة أن يشرع بعد تعريف موضوع

بقصد ما المؤان هنا ليست حرية الإرادة التي ضدها الجبرية في الميتافيزيقا والأخلاق Determinisme بل الحرية الفردية التي ضدها السلطات الحاكمة في السياسة والاجتماع Authorites ومدى ما لهذه الأخيرة من سلطان على الأول؛ فما نشأ عنه على طول التاريخ - كما قلنا - صراع، نجد أهم مظاهره عند اليونان والرومان وفي إنجلترا، بين طبقات الأهلين والحكومة أو بين الأهلين أنفسهم .

ذلك أن مشكلة الناس - حين يعيشون في جماعة - أنه يلزمهم الخضوع لقانون وضمي، أو لسلطان المجتمع، حتى يحترم بعضهم حق بعض، وهذه المشكلة الأساسية في الحياة، وإن لم يحسن الناس حلاً فيما يرى « مل »؛ وذلك لتعدد الأهواء الشخصية، وتعارض النافع الخاصة والمنفعة العامة، ثم لسيادة السادة وراء مصالحهم الشخصية، ومحاولة المودين تملق هؤلاء السادة بفعل ما يحبون، وما يظن أنهم يحبون، وبغض ما يكرهون أو يبدر أنهم يكرهون، ما تزال مشكلة كل عصر وإن كانت تبدو في صور جديدة متغيرة .

وقد تساءل: ولم تمارض رغبات الفرد ورغبات المجتمع، وما دخل السلطات الحاكمة في هذا التعارض؟ فاعلم إذن أن الناس يختلفون في رغباتهم كما وكيفها، وأن الناس وإن اتحدت رغباتهم أفراداً، فإنه يتكون من مجموعهم « مجتمع » له هو الآخر رغبته الخاصة التي تختلف عن رغبة كل فرد على حدة - مع أنه في حقيقة الأمر ليس إلا مجموع هؤلاء الأفراد - فتمت تمارض أبدأ بين رغبات الفرد وبين « مجتمع » الأفراد، وتمتد هذه المداوة إلى الحكام أنفسهم بوصفهم يمثل هذا المجتمع والمعبرين عن رغباته، بمعنى أن عداوة الفرد للمجتمع الذي ينازعه لذته ومنافعه تجسم شخص الحكام أنفسهم القاعين على حمايته وتتمتد المشكلة أكثر حين تتدخل في الأمر رغبات الحاكم نفسه كفرد - بأن تكون له لذاته ومنافعه وأهواؤه الفردية - إلى جانب ما يقوم عليه باسم المجتمع .

وباسم هذه الحرية الفردية في التفكير والنقاش واستقلال الشخصية وسلاح المباشرة يتحدث « مل » في الفصول الثلاثة الوسطى من كتابه، فيمهد لها بمقدمة، ويلحق بها تطبيقات مما سنفصل القول فيه في المقتاتين التاليتين

كمال رسوفي

كتابه - وربما قبله - في نقد النظريات التاريخية السابقة، وتفنيد الآراء الحديثة الشائعة، ثم يعرض لنظريات بنتام وأبيه، فينقد من هذه ويمدل ما استحق النقد والتعديل .

فهو في مذهبه النفى الذي يؤكد ويجوم حوله في كل كتاباته، ويخصص له هذا الكتاب، الإنجليزي حق، يتشبه بالواقع والتجربة المستمدة من التاريخ في تطوره، والأمور في حقيقتها، ويحمل على المبادئ النالية العقلية، والافتراضات الميتافيزيقية العقلية (السابقة على التجربة apriori) ونظريته هذه في النفى تمارض - أشد ما تمارض - نظرية « كانت » الأخلاقية، التي تجمل من الضمير والواجب والحسد الأخلاقي أساساً للفعل . فبينما هذه النظرية مثالية تزن السلوك الخلق بالدافع عليه الذي هو أوامر قطعية يفرضها الضمير والواجب؛ إذاً هذه الأخرى واقعية مادية تزن السلوك بمقدار ما تحقق لنا غايته من بسادة ولذة ومنفعة .

٢ - كتاب الحرية :

وإن يعنينا أن تتبع نفى « مل » أكثر من هذا، ولكننا نعود إلى حيث قلنا إنه حيث ينتهي قوله في هذه يبدأ مقاله عن « الحرية » فقد انتهت به مناقشاته لهذه النظرية إلى تأكيد مبدأ على جانب كبير من الأهمية في فلسفته السياسية، لأنه لما جعل من المنفعة مقياساً عاماً ليقم الأفعال، والحكم عليها بالخطأ والصواب بما تحصل في غايتها من تحقيق اللذة وتجنب الألم، تبين له أن تمت منافع جماعية هي أكبر أهمية من المنفعة الفردية بكثير، وأنها أولى بأن تكون مقدمة وقاطمة، وأن هذه المنافع العامة - مع أن القانون والسلطة يقومان على حمايتها - لا بد لها أن تستند إلى تأييد شعور الفرد وعاطفته وتفضيله بحض إرادته أي إلى حريته .

ولم تنحل المشكلة بذلك حلاً حاسماً، بل إن النزاع لا يزال قائماً منذ أقدم المصور فيما بين الحرية الفردية، والسلطة الاجتماعية نتيجة لتعارض المنفعة الشخصية والمنافع العامة المشتركة بين المجموع . واتخذ هذا الصراع بين المنافع مظاهر شتى يعرض لها بالتفصيل .

فالكثير من الكتب قبله لأفلاطون وأرسطو وهوز وغيرهم التي تبحث في فلسفة السياسة والحرية التي